

نحو اللغة العربية الوظيفي وأسس المنهجية

عاشور بن لطرش¹

تاريخ النشر 2017/08/01	تاريخ القبول 2017/06/01	تاريخ الإرسال 2017/05/01
------------------------	-------------------------	--------------------------

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية مقارنة أحمد المتوكل "نحو اللغة العربية الوظيفي" باعتبارها نظرية لسانية عربية تأسست انطلاقاً من نظرية لسانية غربية، وهي نظرية النحو الوظيفي للغوي الهولندي "سيمون دك". وتروم هذه الدراسة الوقوف عند مدى تمثل أحمد المتوكل لمبادئ نظرية النحو الوظيفي. ولتحقيق ذلك سنوزع مضمون الدراسة على ثلاثة مباحث:

1- مبادئ النحو الوظيفي.

2- مراحل اشتقاق أو بناء الجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي.

3- رتبة مكونات الجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي.

فمن خلال تصور أحمد المتوكل لمراحل اشتقاق الجملة في اللغة العربية ورتبة مكوناتها سيتبين كيف تقيدت مقارنته بأهم مبدأ من مبادئ النحو الوظيفي، وهو تبعية بنية اللغة لوظيفتها.

- الكلمات المفتاحية: نحو اللغة العربية الوظيفي، بنية، وظيفة، جملة.

- Résumé:

Cet article traite de l'approche d'Ahmed El Moutaouakil "La grammaire fonctionnelle de la langue arabe" en tant que théorie linguistique arabe fondée sur une théorie linguistique occidentale, celle de la grammaire fonctionnelle du linguiste Néerlandais "Simon Dik".

Le but de cette étude est d'évaluer dans quelle mesure Ahmed El Moutaouakil a représenté les principes de la théorie de la grammaire fonctionnelle. Pour y parvenir nous allons répartir le contenu de l'étude sur trois chapitres:

¹ - عاشور بن لطرش

- 1- Les principes de la grammaire fonctionnelle.
- 2- Les étapes de dérivation de la phrase dans la grammaire fonctionnelle de la langue arabe.
- 3- Ordre de constituants de la phrase dans la grammaire fonctionnelle de la langue arabe.

C'est à travers la conception d'Ahmed El Moutaouakil de la phrase en langue arabe et de l'ordre de ses constituants que nous verrons en quoi son approche est conforme au principe le plus important de la grammaire fonctionnelle, qui est la dépendance de la structure de la langue pour sa fonction.

- **Mots clés:** grammaire fonctionnelle de la langue arabe, structure, fonction, phrase.

مقدمة:

النحو الوظيفي هو نظرية لسانية حديثة، أو هو من الأنحاء الحديثة، ظهرت الصياغة الأولى لمبادئه والأسس التي تحكم تنظيم مكوناته في كتاب سيمون ديك (Simon Dik): النحو الوظيفي (Functional Grammar) الذي نُشر سنة 1978. وقد مكن تطبيق هذه النظرية على العديد من اللغات، ومنها اللغة العربية، من تطوير مبادئها وإغنائها¹.

ونحو اللغة العربية الوظيفي هو نحوٌ للغة العربية يقوم على مبادئ النحو الوظيفي، اقترحه أحمد المتوكل في إطار مشروعه "المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي"، يقول موضحاً أهداف هذا المشروع: "للتوجه اللساني الذي اصطلحنا على تسميته المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي ثلاثة أهداف متوازنة متزامنة: الوصف والتفسير اللغويان والتأصيل والإجراء. استشرافاً لإحراز الهدف الأول قيم بناء نحو وظيفي للغة العربية يرصد ظواهرها في التزامن وفي التطور من منظور تبعية البنية للوظيفة مقارنة إياها باللغات التي تنامطها واللغات المنتمية إلى أنماط مغايرة. وسعياً في تحقيق الهدف الثاني وُضعت منهجية علمية لربط البحث اللساني الوظيفي العربي بالتراث اللغوي العربي بلاغته، ونحوه، وأصول فقهِه، باعتباره مرجعاً للاحتجاج، ومصدراً للاقتراض والاعتناء. أما ثالث هذه الأهداف فهو العمل على إدماج البحث اللساني الوظيفي في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بتسخير آلياته واستثمار نتائجه في المجالات الحيوية، كالتواصل بمختلف أنماطه، وتعليم اللغات، والاضطرابات النفسية اللغوية"².

يؤكد، إذن، المتوكل أن النحو الذي بناه يرصد ظواهر اللغة العربية من منظور تبعية بنية اللغة لوظيفتها، وهذا المبدأ واحد من جملة المبادئ التي تأسس عليها النحو الوظيفي.

1- مبادئ النحو الوظيفي:

ينهض النحو الوظيفي على جملة من المبادئ، أهمها ما يلي:

أ- يرى الوظيفيون أن الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي التواصل، يقول المتوكل في هذا السياق: "تُستخدم اللغات لتأدية وظائف متعددة مختلفة إلا أن هذه الوظائف فروع لوظيفة أصل، هي وظيفة التواصل"³.

ب- يتخذُ النحو الوظيفي اللغات الطبيعية (البشرية) موضوعاً له من منظور تبعية بنيتها للوظيفة الأساسية التي تؤديها، وبعبارة أخرى، يسعى النحو الوظيفي إلى وصف خصائص اللغات الطبيعية وتفسيرها بالاعتماد على مبدأ تبعية الخصائص البنيوية (الصوتية والصرفية والتركيبية) للعبارة اللغوية لخصائصها الوظيفية (الدلالية والتداولية).

والذي يُفسّر قيام النحو الوظيفي على هذا المبدأ هو الافتراض الذي انطلق منه سيمون دك، ومفاده أن اللغة نسق بنيوي مجرد يؤدي وظائف متعددة، أهمها وظيفة التواصل، وهذه الوظيفة (تمثلها الخصائص الدلالية والتداولية على وجه الخصوص) تؤثر في بنية هذا النسق؛ أي في خصائصه الصوتية والصرفية والتركيبية. وبناء على هذا الافتراض، ذهب دك وغيره من الوظيفيين إلى أنه لا يمكن دراسة اللغة بمعزل عن وظيفتها التواصلية.

ج- يرى الوظيفيون أن القدرة التواصلية لا تنحصر في معرفة القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، وإنما تتعداها إلى معرفة القواعد التداولية التي تُمكن مستعمل اللغة من إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها في مقامات تواصلية متعددة.

د- يسعى النحو الوظيفي إلى تحقيق العديد من الكفايات، أهمها: الكفاية التداولية، والكفاية النفسية، والكفاية النمطية، والكفاية الديناميكية، والكفاية المراسية، والكفاية التطورية، والكفاية التعليمية، والكفاية الترجمية، والكفاية السيميائية⁴.

هذه هي أهم المبادئ التي تأسس عليها النحو الوظيفي، ولتوضيح كيف أطرت هذه المبادئ مقارنة المتوكل لنحو اللغة العربية، سنعرض مقارنته لمراحل اشتقاق الجملة ورتبة مكوناتها. وقبل ذلك ينبغي أن نشير إلى بعض الأمور المنهجية:

- أولها: نحو اللغة العربية الوظيفي عبارة عن مقاربات خصت بعض ظواهر اللغة العربية، وليس بنيتها النحوية ككل.

- ثانياً: على الرغم من التعديلات والإغناءات التي شهدتها النحو الوظيفي عبر مختلف مراحل تطوره إلا أنه حافظ على المبادئ التي تأسس عليها.

- ثالثها: لن نقف عند الإشكالات التي تُثيرها مقارنة المتوكل للجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي؛ وذلك لأن ما نرومه هنا هو الكشف عن مدى تمثّل هذه المقاربة لمبادئ النحو الوظيفي، وخاصة أهم هذه المبادئ، وهو تبعية بنية اللغة لوظيفتها.

2- مراحل اشتقاق الجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي:

يتم اشتقاق الجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي، والنحو الوظيفي بصفة عامة، عبر بناء ثلاث بنيات: البنية الحملية، والبنية الوظيفية، والبنية المكونية. ويتم بناء هذه البنيات من خلال تطبيق ثلاثة أنساق من القواعد، وهي: قواعد الأساس، وقواعد إسناد الوظائف، وقواعد التعبير؛ حيث تضطلع قواعد الأساس ببناء البنية الحملية، تُنقل هذه البنية إلى بنية وظيفية بواسطة قواعد إسناد الوظائف، وبعد تطبيق هذه القواعد نحصل على بنية وظيفية تامة التحديد، تُشكّل دَخلاً لقواعد التعبير التي تضطلع ببناء البنية المكونية، وباكتمال بناء هذه البنية تكون الجملة جاهزة للتحقق الصوتي. ويمكن تفصيل ما أجملناه هنا كالآتي:

1.2- البنية الحملية: يفترض الوظيفيون أن مفردات اللغات الطبيعية تنقسم إلى نوعين: مفردات أصول ومفردات فروع أو مشتقة. وعلى أساس هذا التقسيم، قسموا محتوى الأساس أو الخزينة إلى شقين: المعجم وقواعد تكوين المحمولات والحدود. أما المعجم فيُمثل قائمة من المفردات الأصول؛ أي المحمولات والحدود الأصول، وأما قواعد التكوين فهي القواعد المسؤولة عن تكوين المفردات المشتقة عن طريق قواعد الاشتقاق، وهي صنفان: قواعد تكوين المحمولات وقواعد تكوين الحدود.

يضطلع المعجم بالتمثيل للمفردات الأصول في شكل مداخل معجمية، في حين تتكفل قواعد تكوين المحمولات والحدود برصد المفردات التي تُشكّل فروعاً للمفردات الأصول. وتُشكّل المفردات الموجودة على شكل قوائم في المعجم وتلك الناتجة عن تطبيق قواعد التكوين بنية تشتمل على محمول يدل على واقعة وعدد من الحدود تُمثّل المشاركين في هذه الواقعة⁵. ويُمثّل لهذه البنية بإطار حملي تتحدد فيه صورة المحمول (جذره)، ومقولته التركيبية (فعل، اسم، صفة، مركب ظرفي، مركب حرفي)، ومحلات موضوعاته، والوظائف الدلالية التي تحملها هذه المحلات، وقيود الانتقاء التي يفرضها المحمول على محلات حدوده⁶.

ولتوضيح هذه العناصر نأخذ الجملة: كتب خالد رسالة. والتي يُعبّر عنها بالإطار الحملي المجرد: [ك ت ب (ف) (س¹: إنسان) منف (س²: مكتوب) متق]. حيث تشير الأحرف (ك ت ب) إلى المادة الأصل للمحمول (كتب) وصورته التي تأتي على وزن "فَعَلَ"، ويشير الرمز (ف) إلى المقولة الصرفية للمحمول؛ أي أن (كتب) محمول فعلي، وأما الرموز الأخرى فتشير إلى أن هذا المحمول يقتضي موضوعين اثنين، يُعبّر عنهما بالمتغيرين: (س¹ وس²)، يفرض عليهما قيوداً خاصة؛ حيث (س¹) يرتبط بسمة إنسان، ويُمثّل الذات المنفذة لواقعة الكتابة؛ لهذا تُسند إليه الوظيفة الدلالية المرموز لها بـ(منف)؛ أي المنفذ، و(س²) يرتبط بسمة لا إنسان/شيء مكتوب، ويُمثّل الذات المتقبلة لعملية الكتابة؛ لهذا تُسند إليه الوظيفة الدلالية المرموز لها بـ(متق)؛ أي المتقبل.

يُشكّل هذا الإطار دَخْلاً لقواعد إدماج الحدود التي يتم بواسطتها إدماج أو ملء محلات الحدود بالمفردات الملائمة طبقاً لقيود الانتقاء التي يفرضها المحمول، كأن ننتقي للمحمول (كتب) المفردات: خالد ورسالة، وبهذا نحصل على بنية حملية جزئية. ونحصل على بنية حملية تامة التحديد بتطبيق قواعد تحديد مُخَصِّصَات المحمول وقواعد تحديد مُخَصِّصَات الحدود⁷.

والمقصود بمُخَصِّصَات المحمول المقولات الثلاث: مقولة الصيغة، ومقولة الجهة، ومقولة الزمن. تُحدد مقولة الصيغة نمط الجملة، وقد اقترح المتوكل أن يُمثّل لها في اللغة العربية بصيغتين: صيغة التدليل (تد) وصيغة التذيت (ذت)، الأولى تُمثّلها الجمل البسيطة المستقلة، نحو: يدرس الطلبة النحو الوظيفي. والثانية تظهر في الجمل المركبة، مثل: يخاف الأستاذ أن يرسب الطلبة.

وتُحدد مقولة الجهة التكوين الزماني الداخلي للواقعة التي يدل عليها المحمول، بحيث تكون هذه الواقعة إما تامة أو غير تامة. وهذه الأخيرة تنفرع إلى المقولات الآتية: التكرار، والتعود، والاستغراق، والتدرج، والشروع، والمقاربة.

وتختص مقولة الزمن بربط وقت تحقق الواقعة بوقت آخر يُشكل الوقت المرجع، وهو في الغالب وقت التكلم. ويرى الوظيفيون أن هذه المقولة تشتمل على الزمن الماضي، والحاضر، والمستقبل. وهذه الأزمنة تنفرع إلى أزمنة ثانوية⁸.

وأما المقصود بمُخَصِّصَات الحدود فهي المقولات الآتية: التعريف، والعدد، والجنس، والإشارة، والتسوير. ويؤشّر لها في بنية الحد، كما يظهر من التمثيل الحملي لكلمة (الرسالة): (ع 1 ث س¹: رسالة (س¹)). حيث (ع): معرف، و(1): مفرد، و(ث): مؤنث⁹.

2.2- البنية الوظيفية: تُنقل البنية الحملية التامة التحديد إلى بنية وظيفية بواسطة تطبيق قواعد إسناد الوظائف، ثم قواعد تحديد مُخَصِّص الحمل التي تتخذ البنية الحملية دَخْلاً لها.

1- قواعد إسناد الوظائف: تُفرد نظرية النحو الوظيفي ثلاثة مستويات تمثيلية مستقلة لرصد مختلف الوظائف التي تجسد العلاقات التي تربط بين مكونات العبارة اللغوية، وهذه المستويات هي: مستوى لتمثيل الوظائف الدلالية (المنفذ، والمتقبل، والمستقبل...)، ومستوى لتمثيل الوظائف التركيبية أو الوجيهية (الفاعل والمفعول)، ومستوى لتمثيل الوظائف التداولية (المبتدأ، والمحور، والبؤرة...).

أ- الوظائف الدلالية: وهي وظائف تُحدد الأدوار التي تقوم بها حدود المحمول، وبتعبير آخر، هي وظائف تُؤشّر إلى نوع مساهمة الذوات التي تُحيل عليها حدود المحمول بالنظر إلى الواقعة التي يدل عليها. وقائمة هذه الوظائف غير محدودة، منها: المنفذ، والمتموضع، والقوة، والمتحمل، والحائل، والمتقبل، والمستقبل، والمكان، والاتجاه، والمصدر. ويتم رصد هذه الوظائف في المدخل المعجمي ذاته؛ أي يتم إسنادها في البنية الحملية، وأما الوظائف الأخرى (التركيبية والتداولية) فتُسند في البنية الوظيفية¹⁰.

ب- الوظائف التركيبية: وهي وظائف تُحدد الوجهة المنطلق منها في وصف الواقعة التي يدل عليها محمول الحمل؛ ولهذا تُسمى أيضا الوظائف الوجهية. وقد حصرها الوظيفيون في وظيفتين فقط: الفاعل والمفعول؛ وذلك بناء على أن حمل الجملة يتشكّل في نظرهم من محمول يدل على الواقعة وعدد من الحدود تدل على المشاركين في الواقعة، وتُقدم الواقعة التي يدل عليها المحمول وفق وجهة معينة، يُمثّلها حدان اثنان: حد يُشكّل المنظور الرئيسي للوجهة التي تُقدم انطلاقا منها الواقعة، وحد آخر يُشكّل المنظور الثانوي لها. وتُسند إلى الحد الذي يُشكّل المنظور الرئيسي للوجهة الوظيفة التركيبية الفاعل، في حين تُسند إلى الحد الذي يُشكّل المنظور الثانوي الوظيفة التركيبية المفعول، ففي قولنا مثلا: كتب الطالب رسالة البارحة. يظهر أن الوجهة التي قُدمت انطلاقا منها واقعة (الكتابة) تنقسم إلى منظورين: المنظور الرئيسي المنطلق منه في تقديم هذه الواقعة، والذي يُمثّله الفاعل (الطالب)، والمنظور الثانوي، يُمثّله المفعول (رسالة)¹¹.

ج- الوظائف التداولية: وهي وظائف تُحدد العلاقات القائمة بين مكونات الجملة بالنظر إلى الوضع التخاطبي بين المتكلم والمخاطب في طبقة مقامية معينة. وتُصنف هذه الوظائف، بحسب موقعها بالنسبة إلى الحمل، إلى صنفين: وظائف داخلية ووظائف خارجية. أما الوظائف الداخلية فهي التي تُسند إلى حدود الحمل، وتشمل وظيفتين: البؤرة والمحور.

- وظيفة البؤرة: يُميّز في نظرية النحو الوظيفي بين نوعين من البؤرة: بؤرة الجديد، وهي البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها المخاطب؛ أي المعلومة التي لا تدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلم والمخاطب، كما يظهر من الجملتين: عاد زيد من السفر البارحة. حدثني عمرو البارحة عن مقالته. وبؤرة المقابلة، وهي البؤرة التي تُسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يشك المخاطب في ورودها أو ينكر ورودها، والجمل الآتية توضح ذلك: البارحة عاد زيد من السفر (لا اليوم). ما رأيت البارحة إلا زيدا. إنما رأيت البارحة زيدا.

- وظيفة المحور: تُسند هذه الوظيفة إلى المكون الدال على ما يُشكّل المحدث عنه داخل الحمل، كالمكون (زيد) في الجملتين: متى رجع زيد؟ رجع زيد البارحة.

وأما الوظائف الخارجية فهي التي تُسند إلى المكونات التي لا تنتهي إلى الحمل، وتشمل هذه الوظائف: المبتدأ، والذيل، والمنادى.

- وظيفة المبتدأ: تُسند إلى المكون الذي يُحدد مجال الخطاب الذي يُعتبر الحمل واردا بالنسبة إليه. وتُسند هذه الوظيفة إلى المركب الاسمي والجملة، كما توضحه الأمثلة الآتية: زيد، قام أبوه. الجنود، رجعوا من الحرب منتصرين. أما إنك نجحت في الامتحان، فذلك ما كنت أتوقع.

- وظيفة الذيل: تُسند إلى المكون الذي يحمل معلومة توضح معلومة داخل الحمل أو تعدلها أو تصححها، والجمل الآتية توضح ذلك: أخوه مسافر، زيد. قرأت الكتاب، نصفه. قابلت اليوم زيدا، بل خالدا. حيث تُسند في الجملة

الأولى وظيفة ذيل التوضيح إلى المكون (زيد)، وتُسند في الجملة الثانية وظيفة ذيل التعديل إلى المكون (نصفه)، وتُسند في الجملة الأخيرة وظيفة ذيل التصحيح إلى المكون (بل خالدا).

- وظيفة المنادى: تُسند إلى المكون الدال على الكائن المنادى أو المدعو في مقام معين، ومن ثم، فهي تتحقق في البنيات الندائية، والندبية، والاستغائية، كما توضحه الجملة: يا خالد، اقترِب. واخالدا، ابتعد. يا لعمرو، لما أصابنا¹².

وهذه الوظائف كلها، سواء في ذلك الوظائف الدلالية أو التركيبية أو التداولية، يحكمها قيد أحادية الإسناد، ومفاده أن كل موضوع من موضوعات البنية الحملية تُسند إليه وظيفة واحدة من كل نوع في الحمل نفسه، ولا وظيفة تُسند إلى أكثر من موضوع واحد داخل الحمل نفسه¹³.

2- تحديد مُخصَّص الحمل: والمراد بمُخصَّص الحمل ما يُعرف بـ "القوة الإنجازية"، كالإخبار، والسؤال، والدعاء، وغيرها. وهي قوتان: قوة إنجازية حرفية وقوة إنجازية مستلزمة. الأولى هي القوة الإنجازية المعبر عنها بالتنغيم، أو بالأداة، أو بصيغة الفعل، أو بفعل من زمرة الأفعال الإنجازية، كالأفعال: سأل، قال، وعد. وأما الثانية فهي القوة الإنجازية التي تستلزمها الجملة في طبقات مقامية معينة، ففي قولنا: هل تفتح لي الباب؟ توجد بالإضافة إلى القوة الإنجازية الحرفية الاستفهام (هل) قوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي الالتماس¹⁴.

وبإسناد الوظائف وتحديد مُخصَّص المحمول نحصل على بنية وظيفية تامة التحديد، تُشكّل دَخلاً لقواعد التعبير التي تضطلع ببناء البنية المكونية.

3.2- البنية المكونية: يتم بناء هذه البنية من خلال تطبيق نسق قواعد التعبير، وهي مجموعة من القواعد البنيوية (صوتية وصرفية وتركيبية) تُصنف بالنظر إلى مجال تطبيقها كالآتي:

1- قواعد صياغة المحمول: يتمثل دورها في نقل المحمول من صورته المجردة إلى صورته المحققة المصاغة صياغة صرفية تامة انطلاقاً من المعلومات التي توفرها البنيتان الحملية والوظيفية، والمتمثلة في: صورة المحمول المجردة (جذر المحمول)، ومقولته التركيبية (فعل، اسم، صفة، مركب ظرفي، مركب حرفي)، ومُخصَّصات الصيغة والجهية والزمنية.

2- قواعد صياغة الحدود: تتكفل هذه القواعد بنقل الحدود من صورتها المجردة في البنية الحملية إلى صورتها المحققة المصاغة صياغة صرفية تركيبية تامة، وتتم هذه العملية بتطبيق القواعد الآتية:

- انتقاء رأس المركب من المقيدات المتواجدة في الحد، ومثال ذلك أن ننتقي في الجملة: نجح الطالب المجتهد المواظب. الحد (الطالب) رأساً للمركب، وتبقى الحدود الأخرى (المجتهد والمواظب) فضلات.

- تحقيق مُخصَّصات الحد في شكل مُحددات؛ أي في شكل مُحددات، وأسوار (كل، وجميع، وبعض)، ومُشيريات (أسماء الإشارة).

- تحقيق العاطف في حالة وجود حدود معطوفة.

- إسناد الحالات الإعرابية إلى عناصر المركب.

3- قواعد إدماج مؤشّر القوة الإنجازية والمعلقات: من المعروف أن المكونات التي تنصدر الحمل ثلاثة أنماط: المكونات الحدود، ومؤشّرات القوة الإنجازية، والأدوات المعلقة. فأما المكونات الحدود فتندمج في المرحلة الأولى من اشتقاق الجملة، وأما مؤشّرات القوة الإنجازية (الهمزة، وهل، وأو الدالة على الاستفهام الإنكاري، وإن،...)، والأدوات المعلقة؛ أي الأدوات التي تقوم بدور التعليق بين مكونين أو بين حملين (الأداة أن، والضمائر الموصولة،...)، هذه المكونات يتم إدماجها في مرحلة متأخرة من مراحل الاشتقاق عن طريق قواعد إدماج مؤشّر القوة الإنجازية والمعلقات.

4- قواعد الموقعة: وهي القواعد التي تتكفل بترتيب مكونات الجملة، وسنتعرض إليها بالتفصيل في عنصر رتبة مكونات الجملة.

5- قواعد إسناد النبر والتنغيم: وتختص هذه القواعد بإسناد النبر أو التنغيم إلى بعض المكونات، ومن أمثلة ذلك: إسناد النبر إلى المكون الحامل للوظيفة التداولية البؤرة (بؤرة الجديد أو بؤرة المقابلة)، كنبر المكون الاسمي (شاي) في الجملتين: شرب خالد شاي. شاي شرب خالد. وإسناد نغمة صاعدة إلى مؤشّر القوة الإنجازية (هل) في قولنا: هل عاد زيد من السفر؟¹⁵ وبإجراء قواعد إسناد النبر والتنغيم نحصل على بنية مكونية تامة التحديد، تُشكّل دَخلاً لقواعد التأويل الصوتي.

هذه هي مراحل اشتقاق الجملة في نحو اللغة العربية الوظيفي. وحاصل ما ننتهي إليه من هذا العرض المختصر أن تصور المتوكل لهذه المراحل متناسق مع مبادئ النحو الوظيفي، وخاصة مبدأ تبعية البنية للوظيفة؛ ذلك أننا إذا تأملنا هذه المراحل يتبين أن تطبيق قواعد التعبير، وهي قواعد بنيوية (صوتية، وصرفية، وتركيبية) يكون في البنية المكونية، وهي آخر مرحلة من مراحل بناء الجملة، ويتم على أساس المعلومات التي تُوفرها البنيتان العملية والوظيفية.

3- الجملة العربية: أقسامها، ورتبة مكوناتها.

1.3- أقسامها:

تُعتبر جملة في نحو اللغة العربية الوظيفي كل عبارة لغوية تتضمن حملاً. ومرّ بنا أن الحمل يتكون من محمول يدل على واقعة وعدد من الحدود تُمثّل المشاركين في هذه الواقعة.

وتنقسم الجملة، بالنظر إلى عدد حمولها، إلى صنفين: بسيطة ومركبة. وما يهمنا هنا هي الجملة البسيطة، وهي كل جملة تتضمن حملاً واحداً (المحمول وحدوده)، كالجمل: عاد علي من المدرسة. خالد، تزوجته هند. قابلته البارحة، بكر¹⁶.

وتنقسم الجملة البسيطة إلى ثلاثة أنواع: اسمية وفعلية ورابطية. فأما الاسمية فهي الجملة التي يكون محمولها اسما، أو صفة، أو مركبا حرفيا، أو مركبا ظرفيا، كالجمل الآتية: خالد أستاذ. خالد مطمئن. عمرو في الدار. السفر غدا.

وأما الفعلية فهي الجملة التي يكون محمولها فعلا، نحو: ألف خالد كتابا. حطمت الأمواج السفينة. وقف خالد أمام باب الحجرة. فرح المدرب.

وأما الرابطية فهي الجملة المتضمنة لفعل رابط¹⁷. والفعل الرابط في اللغة العربية هو الفعل الذي يتميز بخاصيتين: كونه فعلا ناقصا، وموارده للمحمولات غير الفعلية. وتتضمن هذه المجموعة أربع زمر من الأفعال: (كان)، و(أصبح)، و(ظل)، و(مازال)، والجمل الآتية توضح ذلك: كان زيد أستاذا. أصبح زيد أستاذا. ظل زيد أستاذا. مازال زيد أستاذا¹⁸.

2.3- رتبة مكونات الجملة العربية:

يفترض اللغويون أن البنيتين الحملية والوظيفية عبارة عن شبكة من العلاقات التداولية والدلالية والتركيبية تقوم بين عناصر معجمية (المحمول وحدوده) دون أن ترتبط هذه العناصر بعلاقة توال خطي أو علاقة سبق؛ أي هي بنية غير مرتبة. وقد لزم عن هذا الافتراض ما يلي:

- التمييز بين رتبة عميقة ورتبة سطحية تميز غير وارد في نظرية النحو الوظيفي؛ وذلك لأن ترتيب المكونات يتم في آخر مرحلة من مراحل بناء الجملة (البنية المكونية) بواسطة قواعد الموقعة.

- التمييز بين الرتبة الأصلية والرتبة الفرعية أو بين لغات ذات رتبة ثابتة ولغات ذات رتبة حرة تميز غير وارد في هذه النظرية؛ وذلك لأن قواعد الموقعة غير تحويلية¹⁹.

بناء على هذه الافتراضات، اقترح المتوكل وغيره من اللغويين أن يؤول ترتيب مكونات الجملة إلى الوظائف التداولية والتركيبية والدلالية؛ حيث تتفاعل هذه الوظائف وفق السلمية الآتية: الوظائف التداولية < الوظائف التركيبية < الوظائف الدلالية.

ومفاد هذه السلمية أن مكونات الجملة تأخذ المواقع التي تخولها لها وظائفها التداولية، وإذا لم تُسند إليها وظيفة تداولية فإنها تأخذ المواقع التي تخولها لها وظائفها التركيبية، وإذا لم تُسند إليها وظيفة تركيبية وتداولية فإنها تأخذ المواقع التي تخولها لها وظائفها الدلالية، ومجمل القول: الوظائف التداولية لها الأولوية في تحديد المواقع، ثم تليها الوظائف التركيبية، فالوظائف الدلالية، ففي قولنا: هندا عشق خالد. احتل المكون الاسمي (هندا) الموقع الصدر بحكم وظيفته التداولية بؤرة المقابلة، وهذا على الرغم من أن الموقع الذي تقتضيه وظيفته التركيبية المفعول هو الموقع الذي يلي الفاعل، كما في قولنا: عشق خالد هندا²⁰.

وبإضافة وسيط التعقيد المقولي أصبحت سلمية الموقعة كالآتي: التعقيد المقولي < الوظائف التداولية > الوظائف التركيبية < الوظائف الدلالية. ويُفهم من هذه السلمية أن وسيط التعقيد المقولي له الأولوية في تحديد الرتبة ثم الوظائف. والمقصود بهذا الوسيط أن تتقدم المكونات البسيطة مقوليا على المكونات المعقدة والأكثر تعقيدا، كما في قولنا: علم زيد أن خالدا لم يعد يهتم بالسفر إلى الخارج. حيث احتل المكون المعقد مقوليا (أن خالدا لم يعد يهتم بالسفر إلى الخارج) الموقع الأخير بقطع النظر عن وظيفته التركيبية والتداولية²¹.

وانطلاقا من تفاعل هذه الوسائط، اقترح المتوكل ثلاث بنيات موقعية تحكم ترتيب مكونات الجملة العربية، وهي:

- الجملة الفعلية: م⁴، م²، م¹، م⁰، ف (م آ) فا مف (ص)، م³

- الجملة الاسمية: م⁴، م²، م¹، م⁰، فا ((م س) أو (م ص) أو (م ح) أو (م ظ)) مف (ص)، م³

- الجملة الرباطية: م⁴، م²، م¹، م⁰، ط، فا ((م س) أو (م ص) أو (م ح) أو (م ظ)) مف (ص)، م³

وصُنفت المواقع في هذه البنيات إلى صنفين: مواقع داخلية، وهي:

- موقع الصدر الأول (م¹) يُخصص لمؤشرات القوة الإنجازية، كحروف الاستفهام وبعض المعلقات الدامجة، ك(إن) و(لا) النافية، كما يظهر من الجملة: إن هندا مغادرة غدا.

- موقع الصدر الثاني (م⁰) يُخصص للمكون اسم الاستفهام أو المحور أو بؤرة المقابلة، كما هو شأن المكونات (أين) و(في الشارع) و(رقية) في الجمل الآتية: أين ذهبت زينب؟ في الشارع قابلت أصدقاء قدامى. رقية أحب قيس. (بنبر رقية)

- موقع (م آ) الخاص بالمكون المحور، كالمكون (اللص) في قولنا: قتل اللص الحارس.

- المواقع (ف فا مف) وهي مواقع يشغلها على التوالي: الفعل والفاعل والمفعول.

- الموقع (ص) وهو موقع تشغله المكونات التي لا تُسند إليها وظيفة تركيبية ولا وظيفة تداولية تخولها احتلال موقع خاص، ويظهر من الأمثلة التي ذكرها المتوكل أن هذا الموقع تشغله غالبا المكونات التي تُسند إليها الوظيفة التداولية بؤرة الجديد، كالمكونات (البارحة) و(سنين طويلة) في الجملتين: غادرت هند المدينة البارحة. ساكنت هند زينب سنين طويلة.

- الموقع (ط) وهو موقع الرابط المدمج في الجمل الرباطية. والرموز: (م س) و(م ص) و(م ح) و(م ظ) تُحيل إلى المركبات الاسمية، والوصفية، والحرفية، والظرفية، في الجمل الاسمية والرباطية.

ومواقع خارجية، وهي: (م⁴، م²، م³)، تحتلها على التوالي المكونات التي تُسند إليها الوظائف التداولية المنادى، والمبتدأ، والذيل، كما توضحه الجمل الآتية: يا طالب العلم، اجتهد. زيد، أبوه مريض. قرأت الكتاب، نصفه²².

وهذه المواقع كلها، الخارجية منها والداخلية، يحكمها قيد عام هو قيد أحادية الموقعة، ومفاده أن كل موقع يحتله مكون واحد فقط، وخرق هذا القيد يؤدي إلى اشتقاق جمل لاحنة، كالجملتين: متى هندا قابلت؟ البارحة خالدا رأيت. حيث احتل مكونان اثنان الموقع (م⁰)، وهما في الجملة الأولى (متى وهندا)، وفي الجملة الثانية (البارحة وخالدا)²³.

ومما سبق نستنتج ما يلي:

- المواقع الداخلية لمكونات الجملة تحكمها السلمية الآتية: التعقيد المقولي < الوظائف التداولية > الوظائف التركيبية < الوظائف الدلالية؛ أي أن الأولوية في تحديد رتبة مكونات الجملة للتعقيد المقولي ثم الوظائف التداولية، ثم الوظائف التركيبية، وأخيرا الوظائف الدلالية.

- يذهب المتوكل، فيما يخص المكونات (ف فا مف)، إلى أن رتبها تكاد تكون ثابتة، وأي تغيير يطرأ عليها فهو لأغراض تداولية، يقول: "أثبتت الدراسات اللغوية (القديمة منها والحديثة) أن البنية الرتبية في اللغة العربية الفصحى التي تُحددها الوظائف التركيبية (الفاعل، المفعول) هي البنية: ف فا (مف) (ص). حيث تشير الرموز (ف فا مف) إلى موقع الفعل والفاعل والمفعول على التوالي، وحيث يشير الرمز (ص) إلى الموقع الذي تحتله المكونات التي لا وظيفة تركيبية لها"²⁴. ويحدث التغيير في هذه البنية لأغراض تداولية، ومن أمثلة ذلك تقديم المفعول في قولنا: عشق هندا خالد. حيث تقدم المفعول (هندا) على الفاعل (خالد) لأننا أسندنا إليه الوظيفة التداولية المحور، وفي قولنا: هندا عشق خالد. تقدم المفعول (هندا) على الفعل (عشق) لأننا أسندنا إليه الوظيفة التداولية بؤرة المقابلة.

- المواقع الخارجية؛ أي التي تحتلها المكونات التي تُسند إليها الوظائف التداولية الخارجية (المنادى، والمبتدأ، والذيل) هي مواقع ثابتة؛ حيث يتقدم المبتدأ على الجملة، ويتأخر الذيل، وأما المنادى فيحتل الموقع المتقدم على موقع المبتدأ أو الموقع الموالي لموقع الذيل، كما توضحه الجملتان: يا زيد، أخوك، زاره عمرو. أعجبنى صديقك، سلوكه، يا خالد. ويمكن صياغة هذه المواقع كالاتي: (منادى)، مبتدأ، [جملة]، ذيل (منادى)²⁵.

وأمام هذه النتائج قد تختلف قراءتنا لمقاربة المتوكل لرتبة مكونات الجملة العربية، فيراها فريق أنها رتبة حرة، ويرأها فريق آخر أنها رتبة ثابتة، ولكن هي في نظر المتوكل رتبة مقيدة تداوليا، يقول مؤكدا ذلك: "الرتبة إذن في العربية الفصحى وفي النمط الذي تنتمي إليه رتبة محكومة تداوليا، وإن بدت حرة في المقاربات التي لا تدخل الوظيفة في الحساب أو التي تؤمن باستقلال البنية عن الوظيفة"²⁶. وتأثير الأغراض التداولية في الرتبة هو وجه من أوجه تحقق مبدأ تبعية البنية للوظيفة.

خاتمة:

نخلص مما تقدم إلى أن مقارنة المتوكل لمراحل اشتقاق الجملة العربية ورتبة مكوناتها تقيدت بمبدأ تبعية البنية للوظيفة، فقد رأينا، فيما يخص مراحل اشتقاق الجملة، أن آخر مرحلة (البنية المكونية)، وهي مرحلة بنيوية محضة (صوتية وصرفية وتركيبية)، يتم بناؤها على أساس المعلومات التي توفرها البنيتان الحملية والوظيفية. وقد تأكد تحقق هذا المبدأ في مقارنة المتوكل لرتبة مكونات الجملة العربية، فالمعروف أن الرتبة أو قواعد الموقعة هي قواعد تركيبية؛ أي بنيوية، وتأثير الوظائف فيها، وخاصة الوظائف التداولية، يحقق مبدأ تبعية الخصائص البنيوية للغة لخصائصها الوظيفية.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، ط2، 2010، ص137.
- ² - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط: مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ودار الأمان (الرباط)، ط1، 2011، ص9.
- ³ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة: دراسة في التنميط والتطور، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، ودار الأمان (الرباط)، ومنشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1، 2012، ص25.
- ⁴ - للمزيد من التفصيل حول مبادئ النحو الوظيفي ينظر: أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد، دار الأمان (الرباط)، ط1، 2006، ص19-36.
- ⁵ - ينتهي المحمول في نظرية النحو الوظيفي إلى إحدى المقولات الآتية: الفعل، أو الاسم، أو الصفة، أو المركب الحرفي، أو المركب الظرفي، والجملة الآتية توضح ذلك: سافر الأستاذ. خالد أستاذ. هند غاضبة. زيد في الدار. السفر غدا. وأما الوقائع التي يدل عليها فهي: الأعمال والأحداث والأوضاع والحالات، كما توضحه الجمل الآتية: ألف خالد كتابا (عمل). حطمت الأمواج السفينة (حدث). وقف خالد أمام باب الحجرة (وضع). فرح المدرب بفوز فريقه (حالة). للتوسع أكثر في هذا الموضوع ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، (الدار البيضاء)، ط1، 1985، ص12-13.
- ⁶ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، ص140-143.
- ⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص145-148.
- ⁸ - للمزيد من التفصيل حول هذه المقولات ينظر: أحمد المتوكل، من قضايا الرابط في اللغة العربية، منشورات عكاظ، (الرباط)، دط، 1987، ص22-31.
- ⁹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي - التركيبي، دار الأمان (الرباط)، دط، 1996، ص144-183.
- ¹⁰ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان (الرباط)، دط، 1995، ص87-89.

- ¹¹ - ينظر للمزيد من التفصيل حول الوظائف التركيبية: أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة (الدار البيضاء)، دط، 1987، ص 19-24.
- ¹² - للتوسع أكثر في هذه الوظائف ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 27-180.
- ¹³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 39-41، وص 73-74.
- ¹⁴ - ينظر: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، دار الثقافة (الدار البيضاء)، ط 1، 1986، ص 105-107.
- ¹⁵ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، ص 160-180.
- ¹⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص 7.
- ¹⁷ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، هامش ص 177-178. وللإشارة، فإن المحمولات غير الفعلية شأنها شأن المحمولات الفعلية، ترد دالة على الأصناف الأربعة من الوقائع (الأعمال، والأحداث، والأوضاع، والحالات)، كما يتبين من الجمل الآتية: خالد منطلق (عمل). الريح مزمجرة (حدث). زينب واقفة بالباب (وضع). خالد حزين (حالة).
- ¹⁸ - يُميّز أحمد المتوكل بين نوعين من الأفعال في اللغة العربية: الأفعال التامة والأفعال الناقصة، وأهم فرق بينها أن الأفعال التامة تدل على الواقعة، وأما الأفعال الناقصة فلا تدل على الواقعة، وإنما يتوسط بها للدلالة على مقولات نحوية، كالمقولتين: الجهة والزمن. والأفعال الناقصة ترد إما مساعدة وإما رابطة؛ ترد مساعدة لما توارد محمولات فعلية، كالفعل (كان) في قولنا: كان خالد يكتب الدرس. وتأتي رابطة لما توارد محمولات غير فعلية، كالفعل (كان) في قولنا: كان خالد فرحاً. للمزيد من التفصيل ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي - التركيبي، ص 33-43. ومن قضايا الرابط في اللغة العربية، ص 31-35، وص 55-67.
- ¹⁹ - من المبادئ التي قامت عليها نظرية النحو الوظيفي في سعيها لتحقيق الكفاية النفسية استبعاد كل القواعد التي شكك في واقعيتها النفسية، كالقواعد التحويلية. ينظر للمزيد من التفصيل: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، ص 10-09.
- ²⁰ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي - التركيبي، ص 221-234.
- ²¹ - ينظر: أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، ص 51-52.
- ²² - للتوسع أكثر في البنيات الموقعية في اللغة العربية ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي - التركيبي، ص 221-253.
- ²³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 241.
- ²⁴ - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، ص 63.
- ²⁵ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي - التركيبي، ص 226.
- ²⁶ - أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية: قضايا ومقاربات، دار الأمان (الرباط)، دط، 2005، ص 33.